

السلطان عبد الحميد الثاني

خواطر تحسين باشا في يلدز

رئيس دائرة الكتابة بقصر يلدز



ترجمة

كمال أحمد فوجعة

(١٤١٤هـ - ١٩٩٤م)

الطبعة الأولى ٢٠٠٥

ISBN: - - -

دار الفسطاط للنشر

تقديم

مذكرات تحسين باشا عن عبد الحميد ويلدز من المراجع الرئيسية لتاريخنا القريب. ويمكننا أن نقول على وجه الخصوص أنه الكتاب الوحيد الذي يعتمد على المشاهدات والوثائق عن السلطان عبد الحميد وفترة حكمه. وإذا عرفنا مبلغ الجدل المحتدم حول شخصية السلطان عبد الحميد وحكمه عرفنا مبلغ وقيمة هذا الكتاب. ومذكرات إنسان شغل منصب رئاسة الكُتاب لدى السلطان عبد الحميد مدة خمس عشرة سنة لا بدّ أن تكون لها هذه الأهمية. ونضيف هنا لنقول إن محتويات هذا الكتاب كانت مرجع كثير من مؤرخي التاريخ القريب أمثال إسماعيل حامي دانشمند ونهال آدسز ويلماز ووزتونا ورجال الفكر أمثال نجيب فاضل وغيره.

ومن المؤسف أن هذه المذكرات التي طبعت عام ١٩٣١ في كتاب، بالرغم من اعتمادها مصدراً من قبل كل الكُتاب، فما أعيد طبعها بعد ذلك التاريخ، أي أنها لم تقدّم إلى القارئ التركي مباشرة، فأردنا تكملة هذا النقص بنشر هذه المذكرات.

نشرت هذه المذكرات في الأعوام ١٩٣٠-١٩٣١ بجريدة «مليت» مسلسلة وأثارت في حينها جدلاً كبيراً. وفي عام ١٩٣١ طبعتها مكتبة المعلم أحمد خالد في كتاب. قدمت جريدة «مليت» هذه المذكرات بقولها: «ستكون مؤلفاً فريداً في البحث بالمشاهدة عن الحياة الكاملة للسلطان عبد الحميد». وبدأ نشرها مسلسلة اعتباراً من ١١ آب حتى الحلقة ١٢٦، ذكر في أسفل الحلقة أن لها بقية. وفي ١٢ آذار ١٩٣١ استأنفت الجريدة نشرها تحت عنوان: «يلدز والمشروطية» واستمرت حتى بلغت ٤٤ حلقة، وذكر في أسفل هذه الحلقة بأن لها بقية. لكن الحقيقة أن المذكرات اكتملت بتلك الحلقة. وإعداد هذا المؤلف الوثيقة لم يكن سهلاً، بدأنا بمقابلة الحلقات بالكتاب ثم قمنا بتصحيح الأخطاء المطبعية والإخطاء الإملائية، وتعيّن علينا كتابة بعض الحوادث والشروح حول بعض الأمور والشخصيات المعروفة في تلك الأيام والتي يجهلها الكثير منا في الوقت الحالي. أما اللغة التي كتبت بها المذكرات تلك الأيام فمشكلة قائمة بذاتها. كانت لغة الكتاب في القصر العثماني بتلك العصور، فهمها هذه الأيام صعب، لكنها لغة قوية وأسلوب متماسك.

ولكي يفاد القارئ إفادة كاملة أجرينا ما يلي:

- ١- أضفنا إلى الكتاب الأقسام غير الموجودة فيه وسبق أن نُشرت في حلقات.
 - ٢- أضفنا عناوين فرعية ليسهل على القارئ قراءتها وفهمها دون أن نمس النص الأصلي.
 - ٣- أضفنا بعض الحوادث لتسهيل الفهم في بعض النقاط.
 - ٤- أضفنا بعض الشروح في نهاية الكتاب حول بعض الشخصيات والمواقع التي مر ذكرها في الكتاب.^١
- أما بالنسبة لمحتوى المذكرات ففيها كثير من المشاكل المهمة التي وصلت إلى يومنا هذا، مثل المشكلة الأرمنية، والعلاقات الدبلوماسية مع الدول التي سعت لإسقاط الدولة العثمانية مثل إنجلترا وفرنسا وروسيا، وكيف استغلت هذه الدول عامل الأقليات وخاصة الأرمن والروم، والحرب التركية-اليونانية، والاضطرابات في بلاد الروم، وإعلان المشروطية، وشخصية السلطان عبد الحميد، حياته الخاصة، صفاته، حياته اليومية، سياسته الداخلية والخارجية، يقدم المؤلف عنها معلومات فريدة تعتمد على المشاهدة الشخصية والوثائق.

١٩٨٩/١١/٦

علي أرغانافون

^١ هذا في النسخة التركية. وقد صرف المترجم النظر عنها ولم يدرجها في الترجمة العربية للنص.

من هو تحسين باشا

المعلومات المذكورة في قيود دفاتر سجل الأحوال المحفوظة في مديرية الأرشيف لرئاسة الوزراء (التركية) والمعلومات المذكورة في الكتب التي لها صفة موسوعية، هي بمثابة المصادر الرئيسية التي رجعنا إليها في ترجمة حياة الباشا. ففي دفتر الأحوال في أرشيف رئاسة الوزراء، ذكر في سجل نفوسه أنه ولد في دار السعادة (استانبول) في العام الهجري ١٢٧٥ (١٨٥٩/١٨٥٨) وأن اسم أبيه هو سعود أفندي، وأنه أكمل تعليمه الابتدائي والإعدادي (المتوسط)، لكنه طوّر تعليمه في الباب العالي (مجمع الدوائر الحكومية). وصار ملازماً. تعلم صدر عالي مكتوبي (مراسلات) وهو في الثالث عشر من عمره ٢٠ أيار ١٢٨٦/١ حزيران ١٨٧٠. وفي ١٢٩٢ رومية (١٨٧٧) نقل إلى قلم مراسلات وزارة الداخلية، وركب إلى درجة «معاون» ثم إلى درجة «رئيس معاونين». وفي ٢٥ حزيران ١٣٠٠ (٧ تموز ١٨٨٤) رقي إلى وظيفة مراسل في وزارة البحرية، وبعد وفاة ثريا باشا عين لرئاسة كتاب القصر الهمايوني (المابين)^٢ بترشيح من المرافق (مصاحب) لطفي باشا. أغلب هذه المعلومات مستقاة من دفتر سجل الأحوال.

ويذكر إبراهيم علاء الدين غوسا في كتابه الموسوعي «مشاهير الرجال» أنه ابن سعود أفندي وأنه ولد في استانبول وأنه نشأ في الباب العالي، ويذكر المناصب والوظائف التي شغلها حتى صار رئيساً للكتاب، مطابقاً للمعلومات الواردة في سجل الأحوال، وبالإضافة إلى هذه المعلومات يضيف غوسا ما يلي: «يروى أنه لا يتكلم سوى اللغة التركية، إلا أن كتابته جيدة، وأنه نقي السريرة، وأنه من الموظفين المشهود لهم بالاستقامة في قصر السلطان عبدالحميد». وبعد أن يذكر إبراهيم علاء الدين غوسا أنه بعد الانقلاب الذي حدث عام ١٩٠٨ عُزل تحسين باشا من منصبه وجُرد من رتبته، يضيف: «وعاش بعد ذلك مدة طويلة، وأمضى الأعوام الأخيرة من عمره في شطف من العيش». ولم يذكر غوسا تاريخ وفاته (مشاهير الرجال ١٩٣٣-٣٦، ج ٤، ص ١٥٠٤-١٥٠٥).

أما المعلومات التي جمعناها من الأشخاص الذين لهم علاقة بتحسين باشا فهي على النحو التالي:

استقال تحسين باشا من منصبه في القصر قبل ثماني وأربعين ساعة من انقلاب ١٩٠٨، وبعد الانقلاب نفي إلى ميدللي وعاد إلى استانبول بعد العفو الذي صدر خلال حرب البلقان.

تزوج من ابنة أحمد رفيق باشا مدير المحاكمات، وهو عديل هاشم باشا وزير المعارف.

تزوجت حفيدته بابتين سليم ملحم أحد رجال قصر السلطان عبد الحميد. ويذكر المؤرخ جمال قوتاي بأن أسرة ملحم تنحدر من أصول لبنانية كاثوليكية. ويعرّف رئيس الكتاب تحسين باشا بأنه «تحسين باشا الأسود»، روى مذكراته بتشجيع من صديقه إسماعيل مشتاق مايوكن، وكتبها له هذا الصديق.

أمضى أيامه الأخيرة ملازماً لحفيده المريض في فقر مدقع. وأصح الروايات أنه توفي عام ١٩٣٤.

^٢ المابين: كلمة عربية تطلق على جناح في القصر السلطاني بين جناح الحريم والإدارات الخارجية. وكان السلاطين إذا لم يغادروا قصورهم، قضوا وقتاً فيه بعد الظهر، وتناولوا طعامهم. وبعد عهد السلطان محمود الثاني، كان يُنظر في كل الشؤون غير المتعلقة بالقصر في «المابين». وقد أقام رجال الدولة العثمانية قديماً في قصورهم ما يشبه «المابين»، ويسمى الحرملك والسلامك. (معجم الدولة العثمانية، د. حسن مجيب المصري، ص ١٢٣).

حاز خلال شغل مهام منصبه على الأوسمة التالية: المرصع المجيدي، مهر سليمانى (الحبشة)، سانت ألكسندر (بلغاريا)، شيرخورشيد (إيران)، إيجل روج (ألمانيا)، إيجل بلاك (صربيا)، ليحيون لدنور (فرنسا)، سانت آن (روسيا)، سانت لازار مورمي (إيطاليا)، أليفانت بلانك (سيام)، إيتوال دوروماني (رومانيا)، تمثال شاهي (إيران).



الفسطاط للنشر الإلكتروني

السلطان عبد الحميد الثاني
خواطر تحسين باشا في يلدز

ترجمة

كمال أحمد فوجعة

الطبعة الأولى ٢٠٠٥

ISBN: - - -

دار الفسطاط للنشر

كيف دخلتُ القصر؟

عُيِّنْتُ خلفاً لرئيس كتّاب المابين ثريا باشا على هذا النحو: توفي ثريا باشا في ١٢ تشرين الثاني ١٣١٠ (٢٤ تشرين الثاني ١٨٩٤) في قصره بشكل فجائي، وفي ذلك التاريخ كنت مراسل البحرية، سمعتُ خبر وفاة ثريا باشا وأنا على رأس عملي في وزارة البحرية، وبعد انتهاء الدوام المسائي عدت إلى بيتي، ولم يمض وقت طويل على وصولي إلى البيت حتى جاءني رجل من ضباط صف (شاويش) المعية السنية وأبلغني الأمر بذهابي إلى قصر يلدر، وكنت قبل هذه المرة أتردد على قصر يلدر إما لتبليغ مذكرة رسمية من قبل وزير البحرية أو لتقديم وتبليغ بعض الطلبات (المعروضات) الرسمية، أما هذه المرة فقد دعيت إلى القصر مباشرة وبارادة سنية.

انتظار في دائرة الكتابة (المابين) لمدة أربع وعشرين ساعة

ذهبتُ إلى القصر برفقة حضرة الشاويش، أخذوني إلى غرفة في دائرة المابين وقالوا بأن علي أن أنتظر إرادة سنية، طال الانتظار حتى اليوم الثاني ولمدة أربع وعشرين ساعة. في هذه الفترة لم أبلغ بشيء ولم يأتي أحد سوى رجل لم أعرفه جاءني قبيل المغرب وأبلغني أمراً بقضاء الليلة هنا ضيفاً على القصر، وهياًوا لي كل أسباب الراحة. ومن تلك اللحظة زال قلقي تماماً، لأنه لا يعقل لمن جاء به لمقصد سيء أو لعاقبة غير محمودة بأن يلقي معاملة الضيف العزيز الكريم. وأخيراً فهمتُ سبب هذا الانتظار الطويل، فالذين يقرر تعيينهم لوظيفة مهمة في القصر تُوجَّه إليهم دعوة وبهذه الصورة يستضافون في القصر، وخلال هذه المدة تجرى بحقهم التحقيقات الضرورية ثم تنظم المعاملات الخاصة بالتعيين. ومن الممكن أن تجرى هذه التحقيقات قبل ذلك وبطريقة غير تلك الطريقة ولا داعي لأن يوتى بمن يُعيَّن إلى القصر ويوضع تحت المراقبة وتجرى التحقيقات، لكنها عادة بقيتُ تطبق في القصر.

«اكتب شيئاً، أي شيء يخطر على بالك»

وقبيل مساء اليوم التالي دخل عليّ رجل من المبلغين (المابين) عرفت فيما بعد أنه بكر بك، وقال:

- بأمر سيدنا، اكتب شيئاً لأرفعه إليه.

وقعتُ بحيرة فيما ينبغي علي أن أكتب، لكن بكر بك أزال حيرتي حين قال:

- اكتب أي شيء يخطر على بالك.

أحسست بأنني سأعيّن في منصب من المناصب. من الواضح أن مولانا السلطان يريد أن يرى كتابتي ويفهم طريقة تعبيرتي، فكتبْتُ معروضاً يوافق الحال، فأخذه بكر بك وذهب. وبعد غياب ساعة عاد إلي ثانية وأخذني إلى مكان رأيته قبل هذه المرة، أخذني إلى دائرة رئاسة الكُتّاب ودخلنا الغرفة المخصصة لرؤساء الكتاب، وعندها أبلغني بكر بك «بأن مولانا السلطان عينني لرئاسة كتّاب المابين الهمايوني»، وأجلسني خلف مكتبي وخرج. وفي اليوم التالي دخل علي رجل مسنّ، عرفت فيما بعد أنه الحاج محمود أفندي مدير الكديش، ومديرية الكديش منصب مهمته إجراء الترتيبات اللازمة لذهاب السلطان إلى جهة معينة بالخيال أو العربية. والحاج محمود أفندي من أقدم الناس الذين كانوا في خدمة السلطان عبد الحميد. اكتسب ثقة السلطان، فلما يخلد السلطان إلى الراحة والنوم يجلس خلف الحاج الخشبي أمام السرير أحد العبيد الموثوقين يقرأ إحدى الروايات إلى أن ينام السلطان. والحاج محمود يقوم بهذه المهمة أيضاً.

الحاج محمود أفندي أخذني لمقابلة السلطان

أبلغني الحاج محمود أفندي بأن مولانا السلطان سيستقبلني. مشينا الطريق المائل للصعود سوية ودخلنا دائرة من دور واحد، هي قصر السياج، عبارة عن صالات متصلة ببعضها، رأينا أمام مدخله جمعاً من المرافقين والحرس الخاص وأغا الحريم. كنت مضطرباً لتحملتي مسؤولية ثقيلة لمنصب مهم في قصر سلطان مثل عبد الحميد. وقد زاد اضطرابي عندما رأيت هذا الجمع أمام قصر السياج. هناك فرق شاسع بين الوسط الهادئ في مراسلات البحرية وبين الوسط الجديد الذي أصبحت فيه. عبرنا سوية هذا الجمع من غير توقف. فتح باب الصالة التي أمامنا ودخلت، رأيت السلطان عبد الحميد منتصباً وسط الصالة، متحلياً زياً مدنياً جميلاً، أدبت له التحية فبادرني قائلاً:

- سمعت عن سيرتك الحسنة، واخترتك بنفسى رئيساً للكتاب. أمل أن تقوم بهذه المهمة باستقامة.

عندما أبلغني السلطان عبد الحميد بمنصبي الجديد قائلاً: «اخترتك بنفسى» قصد بقوله هذا ما يلي:

- إنك لست مديناً بمنصبك هذا لتوصية وحماية، أو إشعار أو إنهاء شخص أو جهة، هذا الفضل لك مني مباشرة، وعليه فليس لك أي مرجع غيري، ولن تكون لك أي غاية سوى الانقياد لإرادتي.

هذه إحدى سياسات السلطان عبد الحميد، يريد أن يكون الجميع مرتبطاً به، ومديناً بالفضل له ولمقام السلطنة، ولهذا السبب كان يُسرُّ من الرجوع إليه في كل أمر وانتظار الفضل منه في كل حال. وهذا هو السبب أيضاً في عدم رفض أي استعفاف ولو كان غير ممكن التحقيق، ويلجأ إلى تطيب خاطر الأشخاص بشكل من الأشكال في حال عدم تمكنه من إرضائهم فيما يطلبون. فأول استقبالي لي كان بهذه الصورة، ثم أذن لي بالعودة إلى رأس عملي، وبعد قليل دخل علي الحاج محمود أفندي مدير الكديش، وبعد بضع جمل من التهاني والتبريكات قال:

- قبل أن يستقبلك مولانا السلطان كان بحضرته الصدر (رئيس الوزراء) السابق سعيد باشا^٣، وكنت هناك، فلما ذكر السلطان تعيينك لرئاسة الكتاب، شهد لك سعيد باشا شهادة حسنة وأثنى عليك. وروى لي محمود أفندي الدور الذي لعبه سعيد باشا في اختياري رئيساً للكتاب فقال:

بعد وفاة ثريا باشا بساعتين أرسل جناب السلطان مظروفاً إلى سعيد باشا وطلب منه بيان رأيه في محتوياته، وكان ضمن المظروف وريقة فيها أسماء المرشحين لرئاسة الكتاب، ولم يكن سعيد باشا بالرجل الذي لا يفكر في مبلغ الخطورة من توصية شخص لرئاسة الكتاب على مسؤوليته لحاكم مثل عبد الحميد. من المؤكد بأنه شديد التوهم والحذر من عواقب مثل هذا التصرف، ومع ذلك فلأنه كان سابقاً أول رئيس الكتاب عند السلطان عبد الحميد، فإن السلطان مقتنع بأن الباشا يعرف الشروط الواجب توفرها في رئيس الكتاب، فرد عليه لأول مرة:

- أي اسم في هذه الوريقة يتفضل مولانا السلطان باختياره فهو الأصح.

لكن السلطان أعاد الوريقة إليه ذاكراً أنه لا بد له من اختيار واحد منهم، فلم يبق أمام سعيد باشا من سبيل، فاقترح اسمي إلى جانب اسمين آخرين، عند ذلك اختارني السلطان لهذا المنصب.

^٣ ولد سعيد باشا في أرضروم عام ١٨٣٨، ضرب الرقم القياسي في تقلد منصب الصدارة وفي عزله من هذا المنصب. وبالرغم من كونه إنساناً دؤوباً وخبيراً فقد كان أيضاً شديد التوهم والحذر. توفي بتاريخ ١ مارس سنة ١٩١٤.

دائرة رئاسة الكتاب

عُرِفَتْ دائرة الكتاب ببلدز بُعدها عن القيل والقال و عما يدار في الخفاء، وبوقارها وجديتها وبتمسكها بالعمل الرسمي الصادق. وزملائي الذين تعرّفْتُ عليهم من أول يوم عُيِّنْتُ فيه لرئاسة الكتاب وبدأت عملي رسمي لكل منهم قيمة ومزية خاصة، بعضهم انتقل إلى جوار ربه والبعض الآخر لا زالوا على قيد الحياة وفي مناصب مختلفة، أتذكرهم وأنا أبدأ مذكراتي هذه فأستمطر شآبيب الرحمة لمن توفي منهم والاحترام والتقدير لمن هم على قيد الحياة.

وفي قصر بلدز مجموعة من الدوائر ذات قالب رسمي ومسجلة في حوليات الدولة، لكن الدائرة الوحيدة التي لها الوصف الرسمي والحقيقي هي دائرة رئاسة الكتاب. وعندما بدأت بعلمي في هذه الدائرة دَقَقْتُ في أمورها ومعاملاتها وطريقة تقسيم الوظائف وتنفيذها، فوجدتها منتظمة ومحددة بدقة.

ويمكنني أن أقول (ليس من باب التفاخر) بأن دائرة رئاسة الكتاب من حيث النظام والانضباط وتبسيط سير المعاملات وسرعة إنجازها كانت تتفوق على الباب العالي (رئاسة الحكومة) والوزارات الأخرى، فلا مجال هنا لضياح أي ورقة مهما كانت صغيرة، أو لتسرب معاملة دون مراقبة أو تأشير عليها، أو المماطلة فيها وعدم إنجازها، لأن كل المسائل الداخلة لدائرة رئاسة الكتاب والخارجة منها تمرُّ على عبد الحميد شخصياً فيدون ملاحظته عليها، وأي مذكرة أو عريضة ترسل إلى دائرة الكتابة يصل إشعار ورودها إلى السلطان من طريق آخر، وكل إرادة تبلغ عن طريق دائرة الكتابة ينبغي تقديم كشف عنها لعبد الحميد في كل يوم. أضف إلى هذا، فإن الصدق والإخلاص في العمل عند الكتاب يزيد من آلية ونشاط هذه الدائرة.

اطلاع السلطان عبد الحميد الشخصي على مذكراته

مهمة دائرة رئاسة الكتاب تتلخص بإجراء التبليغ والتبليغ بين الحاكم والدوائر الرسمية. وباستثناء بعض المعلومات التي تعرض على السلطان من قِبَل دائرة الكتابة، فتسجل وتقدم للسلطان. أما الردود عليها والإرادات السنوية الصادرة ابتداء فنقوم هذه الدائرة بتبليغها لمن يلزم. والمعروضات التي تمر إلى القصر تكون على النحو التالي: ما يتعلق بالشؤون المدنية يقدمها الصدر الأعظم (رئيس الحكومة)، وما يتعلق بالشؤون العلمية يقدمها شيخ الإسلام، والأوراق المتعلقة بالبحرية يقدمها وزير البحرية، وما يتعلق بالأمور العسكرية يقدمها رئيس العسكر (وزير الدفاع)، والأوراق المتعلقة بالطوبخانة (التجهيزات) والمكاتب العسكرية يقدمها مشير الطوبخانة، وما يتعلق بالخرينة يقدمها وزير الخزينة الخاصة. وتكون المعروضات إما بمذكرات رسمية أو خاصة، وتُبَلِّغُ الإرادات أما على هوامش المذكرات الرسمية أو بمذكرات خاصة. والمذكرات التي تقدم إلى السلطان عبد الحميد يقرأها شخصياً أو يسمعا من أحد موظفي المابين (الوسيط). والمعروضات التي ترسل إلى القصر في آخر النهار تسجل خلاصتها في دفتر بدائرة الكتابة ليلاً وتوضع مع الدفتر في كيس ويرسل الكيس إلى جهاز التعقيم لتطهيره، مما قد يعلق به من جراثيم، ويسلم إلى أحد المصاحبين (جلساء السلطان) فيودعه في مكتب السلطان. وتأشيرة تصديق أو موافقة السلطان عبد الحميد تكون خلف المذكرة من أعلاها على شكل التاريخ العربي لذلك اليوم، فإن لم يكن إلى جانب هذا التاريخ أي تأشيرة أخرى فذلك يعني أن مضمون المذكرة حظيَ بالموافقة كاملاً. وإذا كان إلى جانب التاريخ حرف «ج» فيعني ذلك أن للسلطان رأي أو جواب عليها، ويعود الوسيط الذي قرأ المذكرة أو رئيس الكتاب ومعه رأي السلطان فيكتب الجواب حسب ذلك الرأي.

ومن الأمور التي يهتم بها السلطان عبد الحميد كثيراً التبليغ الكامل لكل ما يصدره من إرادات أو أوامر. لذلك فإن كل مذكرة تكتب في دائرة الكتابة ترفع له نسخة منها. وكل مذكرة تُردُّ من الباب العالي وتقدم إليه داخل كيس ويوافق عليها، يؤشر خلف كل منها بالتاريخ ويعيدها إلى دائرة الكتابة داخل ظرف خاص، ويسجل على الظرف عدد المذكرات التي بداخله وساعة

تسليمه، ويكتب خلف الظرف كلمة «معلوم» وهذه الكلمة عنده تقدم مقام التوقيع، والذي يأتي بالظرف عليه أن يأخذ ورقة إشعار بالاستلام، ويكتب على ورقة الإشعار عدد المذكرات التي وُجِدَت في الظرف أثناء فتحه، ورقم هذه المذكرات واسم موصل الظرف وساعة إيصاله، ويوقع رئيس الكُتَّاب عليها، ولا بد أن تسلّم هذه الورقة للسلطان عبد الحميد يدًا بيد.

خلاصة القول، فإن السلطان عبد الحميد يحرص كثيراً على أن لا يتعرض ما يُعرَض عليه وما يصدر منه من أمر للضياع أو للتحريف. وإذا أضفنا إلى هذا قوة الذاكرة التي تستحق بأن نقول عنها بأنها ممتازة، تبين لنا شدة وفعالية تدابير الملاحظة عنده.

عبد الحميد ولياً للعهد

خلال فترة ولايته للعهد كان كثير اللقاء والاجتماع بالرجال الذين لهم مناصب مهمة في الدولة وبأرباب الفكر والعلم وبالشخصيات المحلية والأجنبية.

من المعروف أن السلطان عبد الحميد تسلّم مقاليد الحكم في عام ١٢٩٣ (١٨٧٦) إثر خلع السلطان مراد بفتوى شرعية. وعندما كان أميراً وولياً للعهد أقام في الجناح المخصص لأولياء العهد بقصر دولمة باعجه، وفي تلك الفترة كان إخوته الآخرون يقيمون في هذا القصر، لكل منهم جناح خاص يقيم فيه في الصيف والشتاء، في حين يقضي عبد الحميد أفندي أكثر أيام السنة متنقلاً بين مزرعته خارج طرابيا وبين قصره في كاغد خانة وأحياناً في قصر زوجة أبيه (حاضنته) في ماجكا وأحياناً في قصر شقيقته الأميرة جميلة. والسبب الذي يجعل عبد الحميد أفندي متنقلاً هو تفضيله الحياة النشطة في هذه الأماكن على الحياة المنعزلة في جناحه في قصر دولمة باعجه. ونظراً لأنه أقرب الوارثين للسلطنة العثمانية فإنه من قبيل الاستعداد لتسلم المسؤولية يريد الاتصال بأكبر عدد ممكن من الناس، ويسعى لمعرفة كل موضوع وينفذ إلى أعماقه كي لا يبقى بعيداً عن الأحداث العالمية. يُكِنُّ حباً وارتباطاً شديدين لمنزل زوجة أبيه التي ربَّته ولقصر شقيقته، يتردد عليهما بمتعة وشغف، وبعد اعتلائه العرش أخذ بعض قدماء العاملين فيهما إلى قصر يلذ ومنحهم رتباً عالية في مجال خدماتهم، وهذا دليل على شدة حبه لزوجة أبيه وشقيقته. فبهرام آغا الذي عينه لمنصب آغا البنات خلال سلطنته، صار في فترة من الفترات ذائع الصيت قوي النفوذ ويتدخل في بعض الأحيان في الشؤون الكبرى للدولة، وكان من آغوات الأميرة جميلة؛ والحاج علي باشا الذي ترفع حتى أصبح رئيساً للمابئين كان من العبيد المعروفين في قصر زوجة أبيه في ماجكا. حتى سعيد باشا أول رئيس للكتاب تعرف عليه السلطان بدلالة محمود جلال الدين باشا زوج شقيقته، حيث ذكر له محمود جلال الدين باشا ذكاهه واقتداره فرآه في قصر شقيقته وأعجب به. واتصالات عبد الحميد أيام ولايته للعهد خارج نطاق القصر أفادته كثيراً أيام سلطنته، فما أبدى رأياً أو أصدر قراراً في الأحوال والمعاملات إلا وكان لاتصالاته السابقة أثر فيها.

قوة ذاكرة خارقة

كان عبد الحميد أفندي بخلاف إخوته الآخرين يترك أبواب بيته مفتوحة للزائرين في الليل والنهار، ويُعتبر المستر طومسون المترجم الأول في السفارة الإنجليزية من أكثر المترددين على عبد الحميد، كما يعتبر المصدر والمنشأ الرئيسي للمعلومات المتعلقة بالمحافل الأجنبية، يطول اللقاء بينهما، ويخرجان أحياناً معاً في نزهة. وروى لي بعض الخاصة من رجاله في القصر أيام سلطنته ممن كانوا في خدمته أيام ولايته للعهد أنه كان يحس برغبة وفرحة شديتين في اللقاء بالناس، ويسعى لمعرفة كل موضوع وينفذ إلى أعماقه كي لا يبقى بعيداً عن الأحداث العالمية.

ومن الوزراء الذين كانوا أكثر اتصالاً بعبد الحميد في تلك الفترة صفوت باشا وأدهم باشا، كانا يترددان على جناح ولي العهد ليعلماه اللغة الفرنسية. أما أكثر ما يبحثه عبد الحميد مع هذين الوزيرين ومع غيرهما من رجال الدولة ما يتعلق بشؤون البلاد وحياة الناس العامة والخاصة. ولا يكتفي بالعموميات بل يصل إلى كنه كل شيء: خصوصيات الناس وأحوالهم ويهتم اهتماماً خاصاً بخصوصيات وأحوال الرجال والأكابر ومبلغ ثرائهم وطرق التدبير والإدارة في قصورهم. وكانت ذاكرته من القوة بحيث إذا سنحت الفرصة فيما بعد سرد كل المعلومات والمحفوظات في هذه الذاكرة من تلك الأيام دون حذف أو نقصان، بينما يقضي الأمراء الآخرون أيامهم بالغفلة والإسراف وعدم المسؤولية.

ليست هذه هي الصفة الوحيدة التي تُميّز عبد الحميد أفندي عن إخوته الآخرين، والحقيقة أن هذه الصفة وحدها ميزة كبرى إذا عرفنا أن الأمراء الآخرين لا يعرفون شيئاً عن الأحداث التي يعايشونها، كما لا يعرفون أي واحد من رجال العهد وأكابرهم، تفصل بينهم وبين الأحداث العالمية جدران القصر العالية، فهم يعيشون حياة منعزلة تماماً. فعبد الحميد في حياته الخاصة، وطرزاه المعيشي والإداري لم يكن يشبههم أبداً، فالأمراء الآخرون يمضون أيامهم بالغفلة والإسراف دون أدنى شعور بالمسؤولية، بينما كان عبد الحميد يحيا حياة مقتصد ذات ميزانية منتظمة ومحددة، يسيطر سيطرة تامة على كل ما يجري داخل قصره ويطلع على أي شيء يُصرف للحاجات اليومية، يتوقى الإسراف قدر المستطاع، لذلك فهو بالنسبة للأمراء الآخرين يملك دخلاً مالياً ممتازاً. وبينما كان الأمراء يعيشون داخل قصورهم بمعزل عن الناس، لا يعطي إيرادهم مصاريفهم، فهم في ضائقة مالية مستديمة، كان عبد الحميد يقتصد ويوفر من جهة وينمي ثروته ويعيش حياة مرفهة، ويقدم العون المالي لإخوته المحتاجين. وقد ذكر لي شخصياً بأنه أقرض أخاه مراد أفندي مرات كثيرة. عند اعتلائه العرش بلغت عطاياه من ماله الخاص ستين ألف ليرة ذهبية.

كان عبد الحميد أفندي يأخذ من خزينة المالية راتباً مقداره ألف ليرة، لكن الرواتب في تلك الأزمان لم تكن تصرف في أوقات منتظمة، لذلك فإن عبد الحميد أفندي يبيع راتبه للصراف المسيو ظريفي بسبعمئة وخمسين ليرة.

أما المسيو ظريفي فيأخذ رواتب عبد الحميد فيسجلها في الحساب الجاري عنده ويحسب لها نسبة من الفوائد. ويستثمر عبد الحميد ما يتحصل من الرواتب وما يتحصل من المزرعة وبقية الأملاك والعقارات في مشاريع مربحة بدلالة المسيو ظريفي أيضاً. وقد سمعت من بعض من خدموا عنده طويلاً، ومنه في بعض الأحيان، بأنه كان كثير الاستقبال للمسيو ظريفي لبحث الأمور المالية والاطلاع على استثماراته. ومن المؤكد أن السلطان عبد الحميد في بداية سلطنته دفع ستين ألف ليرة من ماله الخاص صرفت على احتفالات الجلوس. وبينما كان الأمراء الآخرون لا يستطيعون بلوغ آخر الشهر برواتبهم صرف عبء الحميد لدى الحاجة ستين ألف ليرة، وهذا مرده إلى فكرة الاقتصاد السليمة عنده.

والسلطان عبد الحميد يعترف بالفضل في هذا الادخار والكسب للمسيو ظريفي، حيث بقي حتى آخر حياته يكن له الحب والاحترام، وبعد وفاة المسيو ظريفي تردد ابنه إلى القصر لتقديم فروض التحية والاحترام، وفي كل مرة يكرمه السلطان عبد الحميد وفاء لذكرى والده.